رثاء الموسيقيين

فى اربعين شـــوقى

(بمسرح حديقة الازبكية)

رُفع الستار عن منظومة كبيرة من الموسيقيين والمغنين يتوسطهم الموسيقار الفنان محمد عبد الوهاب ، واهتزت الأوتار جميعاً بنغم حنون من (الصبا) الشجيّ الحزين الراسى الى قراره ، واذا بصوت عبد الوهاب ينشج ويتهدّج بقوله :

حطّموا الاقـداحْ مثلَ ما حطّمتُ حُزناً قدَحى !
وأدّعـوا الافـراحْ طُوِىَ اليومَ بساطُ الفَرَحِ !

« • »

ماتَ خيرُ الشعراءْ فابكِ يا قَلْبى ! فذاوقتُ البكاءْ !

« • »

خلدوا ذكراهُ فى كلّ القلوبْ — خلّدوها !
مجّدوا ذكراهُ شباناً وشيبْ — مجّدوها !

« • »

عاش كالزهرةِ عِطراً ونَدَا وكسا الفنَّ جلالاً خالدَا
لن تردّوا بعضَ ما أسداكمُ أبداً ، مهما فعلتمْ أبدَا
انّ دمعى يتكلمْ ! فاسمعونى ! انَّ قلبى يتحطمْ ! فاعذرونى !

« • »

مات خيرُ الشعراءْ فابكِ يا قلبى ! فذا وقتُ البكاءْ !

وسمع الحاضرون ما يقول عبد الوهاب والقلوب تنافس الاسماعَ وعياً وتأثراً . وأسدل الستر وانصرف الحضور يجدّد بعضهم لبعض العزاء إن استطيع ، وتمت حفلة الفنانين بذكرى من غذّى الفنَّ وأرضاه .

﴿ تعليقات سعادة احمد زكى باشا ﴾

لقد اختصّ الله أمير الشعراء بسعادات وتوفيقات قد شرحنا بعضها فى مقام آخر (ص٣٨١) ولكن اجلالى لهذه المجلة جعلنى استجيب طلب ولدى النجيب وسميّى الأبرع فى كتابة هذا الفصل لمجلته المحبوبة . وكلامى هنا مقصور على الناحية الفنية بالمعنى الحديث ، على اننى لا أريد التبسط فيما نفح به الأغانى القومية والموسيقى الشرقية ثم المسرح العربى . كل اولئك قد أفاض عليه روحاً يماشى عصرنا الذى نعيش فيه ، ولكن مع ربط التطور الحديث بما كان للغة من فخر قديم وللعروبة من مجد تليد .

فعلى غيرى أن يتحدث عن هذا الروح السارى فى هالة من الانوار .

أما الآية التى جاء بها شوقى للشرق وللفن فى حالة وجوده ، والتى ما يزال ينفخ فيها الحياة بعد وفاته ، فهى الناطقة ببرهان الالحان ، الماثلة للعيان بألوان الأنغام فى شخص محمد عبد الوهاب .

نظر شوقى بنور الله الى النبوغ الكامن فى حنجرة هذا المراهق الناشىء ، فاستخلصه لنفسه ، وقربه من صحبه ، ثم افاض عليه سجال الثروة حساً ومعنى ، ونفث فى فيه سحر الشعر ، وصاغ لفنه جواهر القول ، حتى طلع علينا بذاك الصوت الباهر الساحر ، وأصبح وله ذياك الصيت النادر الطائر . فكان عبد الوهاب وتبارك الله ! وكان له يد فى تهذيب الرنين الموسيقىّ فى تلك النفحات الشوقية . فكأن شأنهما معاً فى هذا المجال ـ وفى هذا المجال وحده ـ كالبحر يمطره السحاب .

وبهذه المناسبة أرى التنويه بحادث شهدته منذ بضعة أيام وفيه البرهان على أن عرفان الجميل من مكارم الأخلاق .

نال شوقى وهو يدبّ على ظهر الارض كلّ ما يتمنى من سعادات مادية وأدبية وكان من احسان الله اليه أن الشرق كله قام وقعد عند ما نعاه الناعى . وما زالت الجرائد والمجلات — حتى الاعجمية — تعرب عن فضائله الى اليوم ، وستتحدث الى ما بعد اليوم بزمان طويل عن أمير الشعراء .

وتلك سعادة لم يظفر بها أسعد السعداء . هذه امصار الشرق قد تسابقت الى تكريم ذكراه فى سلسلة من حفلات التأبين ، بل اننا فى المصر الواحد وفى القاهرة بنوع التخصيص رأينا القوم يتنافسون فى اقامة حفلات متوازية ومتوالية . وما أكثم

ولد سنة ١٨٦٨
دخل مكتب الشيخ صالح
سنة ١٨٧٣
خرج من المدرسة الخديوية
ودخل مدرسة الحقوق
سنة ١٨٨٥

سافر الى اوروبا لتتمة الدراسة
سنة ١٨٨٧
عاد الى مصر من اوروبا
سنة ١٨٩١
نفى الى اسبانيا سنة ١٩١٥
عاد الى مصر من منفاه
فى خريف سنة ١٩١٩

﴿ شوقى فى صباه ﴾

الشخصية الشعريه المحبوبة التى كان يتهافت عليها الاقران حينئذٍ
وقد كان الفقيد مشغوفاً بالموسيقى والشعر منذ نعومة أظفاره

﴿ شوقى وصفيه الموسيقار الفنان محمد عبد الوهاب ﴾
ورأينا ان شوقى وُلد ليكون موسيقاراً فصار شاعراً ألحانه نظمه

الحق فان اكثرها يرمى الى نوع من طلب الشهرة والتهريج ، أو الى لون من ألو الإستغلال والترويج، والاقل من القليل من هذه الحفلات خالص لله وللفن والعبقر

ومن طراز هـذا النزر اليسير ، تلك الحفلة التى اقامها عبد الوهاب ، بل ء الاحسان ، بل سيد العارفين بالجميل .

ففيها تمثل الوفاء بما ترضاه محامد الأخلاق ، وفيها رأيتُ العجبَ العجابَ !

هل أتاكم حديث آلات الطرب: ان الأوتار المشدودة والمعادن المطروقة والمسبو والمصبوبة والعيدان المنشورة والمربوطة والمشقوقة ، كانت كلها فى اتساق واتزان وفى تناسب وتجانس ، وهنـدام تترنم ... ثم تتكلم ... ثم تترحَّم ! وبين الآهـا والنبرات زفير يترجم عن الأنين ، الى شهيق يعبر عن البكاء الذى يبعث البكاء لـكن ... كانت الابصار شاخصة ، والقلوب واجفة ، والألسن منعقدة ، والرؤوس مطرقة . كل ذلك السكون التام وكل ذلك السكوت العميق لئـلا تنفر الملائكة التى تنزلت من سماوات العلا واستقرت كأنها الطير على تلك الرؤوس ! فلم تـكن تسم للقوم رجزاً ولا همساً ، ولا تـكاد تصدق ان فيهم حركة أو حساً . . . الى ان انتهو التلحين الحزين ، ومن العجب العاجب ان انساناً واحداً لم يسمح لنفسه بالتصفي والتصفيق ! فقد تمادى الناس على حبس الايدى والانفاس خوفاً من التشويش على ما بقى من اثر ذلك الترتيل فى التسبيح الذى انزله الله على قلوب من جنات الفراديس

هذه الظاهرة الفريدة فى بابها جعلتنى استغرق فى الذكرى وارجع الى التاريخ الاسلامى فرأيت فيه حادثتين يشبهانها وإن كانت هى اكثر روعة منهما : احداهما فى عهد الامويين والثانية فى عهد العباسيين ، وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه .

وقعت الأولى فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك والثانية فى أيام هارون الرشيد .

كان الخليفة الاموى قد عهد الى معبد امام المغنين فى عصره بأن يلقن الالحان والانغام الى جاريته المشهورة وهى سلامة القس . وكان الاستاذ وتلميذته فى عسكر الوليد (أخى الخليفة)، وهناك وافاه الحمام فتـكفل الوليد بحفلة الجنازة حتى اذا حمل القوم سرير الجنازة على الأعناق ، خرجت الجارية من خدرها وقبضت على السرير بيدها وأخذت تبكى وهى تنشد آخر شعر علمه لها باللحن الذى تلقته عنه وهو قول الأحوص :

قد لعمرى بتّ ليلى كأخى الداء الوجيع
ولحبىّ الهمّ من بات أدنى من ضجيع
كلما ابصرتُ ربعاً خالياً فاضت دموعى
قد خلا من سيد كا ن لنا غير مطيع
لا تلمنـــا إن خشعنا اوهمنـــا بالنشوع

فانصرف الناس عن النظر اليها واضربوا عن الاهتمام بأخى الخليفة وهو قائد العسكر الأعلى ـ (عن الاغانى) .

أما الحادثة التى وقعت فى أيام الرشيد فخلاصتها ان الشاعر ابن مناذر مات له صديق هو عبد المجيد بن عبد الوهاب . وكان عبد الوهاب هذا محدثاً جليلا ، فقال الشاعر يرثيه بقوله :

لأقيمنّ مأتماً كنجوم اللـــيل زهراً يلطمن حمرَ الخدود
موجعات يبكين للكبد الحـ رى عليه للفؤاد العميد

فلما بلغ هـذا الشعر امّ المتوفى قالت وانى لأبرنّ بقسمه ! فأقامت مع اخوانه وجواريه مأتما وقامت تصيح فيه : « واى ويه،واى ويه » ! فكانت على ما قيل اول من أحدث ذلك « الصوات » فى دولة الآلام . ولكن الشاعر ابن مناذر رأى ان ذلك النواح غير مستقيم فى الوزن واللحن فقال لصاحب له : لا أرى نساء ثقيف ينحن على عبدالمجيدعلى استواء (أى فى النغم) . قال لهصاحبه : وما تحب ؟ قال أتخرج معى اطارحك ؟

وفى الخلاء تطارحا القصيدة ، التى نظمها فى رثاء عبد المجيد حتى حفظها صاحبه ثم وضعا لها لحناً .

فلما جاء ميعاد المناحة خرجا الى المسجد وبعد تأدية الفريضة وقفا تحت دار المأتم وكان النساء على سطحها يندبن ، حتى اذا جاء ميعاد الراحة لزمن السكوت فحينئذ اندفع ابن مناذر وصاحبه فى تلحين القصيدة ومنها :

كلّ حى لاقى الحمـــام خمود ما لحىّ مؤمّلٍ من خلود
لا تهاب المنون شيئاً ولا تبـــقى على والد ولا مولود
ان عبد المجيـــد يوم تولّى هدّ ركنا ما كان بالمهدود
هدّ عبد المجيد ركنى وقد كنت بركنٍ انوء منه شديد
ما درى نعشهُ ولا حاملوه ما على النعش من عفافٍ وجود

الى شاعر الخلود

ناحت عليك أبولّو !...

ما أطلعتْ مثلَ (شوقى) أمّـةُ العرَبِ ... شمسٌ من الشرق فوق السبعةِ الشهُبِ
مِنْ جَبهة الفلكِ الوهّاج شَعَّ هُدًى ... ما زال من قُطْبٍ يمشى إلى قُطُبِ
ضاحى السبيل على (سيناءَ) سُدّتُهُ ... مرصَّعُ العرش فى تاجٍ من الذّهَبِ
هىَ العروشُ على الأسياف قائمـةٌ ... وعرْشُ (شوقى) على الأقلام والكتبِ
رفَّتْ على هامة (الجوزاء) رايتـه ... فى موكبٍ كشعاع الفجر ملتهبِ
كرسيّهُ السُحْبُ مثلَ الشُهْبِ نيّرةٌ ... والوحىُ يخفق بين الشُهْبِ والسُحُبِ
سَلِ البلاغةَ كم ألقت مقالدَها ... والعبقريةَ فى محرابهِ الأشبِ
رُواة أبيـاته فى كلّ حاضرةٍ ... وجُندُ آياتهِ فى كل مُغْتربِ
فاضت على ضفّةِ (الوادى) جداولهُ ... فيا لنيلٍ حيال (النيل) منسكبِ
قالت قوافيهِ للأهرام هامسةً : ... كم بيننا فى خلود الذكر من نَسَبِ !
شعرٌ تنزّل عن وحىٍ وعاطفة ... من سِدرة المنتهى مِنْ أرفع القُبَبِ
بَنَى فمكّن حتى صان دولتهُ ... جرى ففبَّر حتى فاز بالقصبِ
مشى معَ (المتنبى) فى روائعهِ ... ونال عن (شكسبير) رايةَ الغلبِ
أعاد خيمة (ليلى) فهىَ خافقةٌ ... بقلب (قيس الهوى) مشدودةِ الطنبِ
وهزّ قلبَ (كلوبطرا) وصاحبَها ... كأنّ عهدَها عن مصر لم يغبِ
عصرٌ لشوقى : تساوى فى أوائلهِ ... وفى أواخرهِ ما جاءَ من عجبِ
قال : « انتهيتُ ! » وأنّى ينتهى؟ ولهُ ... مُلكٌ عريضٌ وجاهٌ واسعُ الحسَبِ
فتحٌ مبينٌ وأيّامٌ محجّلةٌ ... والفتحُ بالكتبِ مثل الفتح بالقضُبِ !

* * *

لله يومُكَ والأشجانُ فى صُعُدٍ ... لمّا نُعيتَ وعينُ الشرق فى صَبَبِ
ناحت عليك (أبولّو)!.. فهىَ ذارفةٌ ... على ترابك دمعَ ابنٍ لفقد أبِ
وصُوِّحَتْ « كرمةُ الإلهام » إذ نَضبتْ ... أغصانُها الخُضْرُ من سَلْسالكَ السكِبِ
أرى « الخليل» وهولُ الخطبِ روّعهُ ... ترويعَ صَبٍّ على إلفَيْهِ[1] منتحبِ

(١) شوقى وحافظ .

تلفتت نحـوهُ الفصحى معزّيةً ... هيهاتَ أن يتعزّى قلبُ مكتئبِ
كانوا ثلاثةَ أطيـارٍ على فَـنَنٍ ... نَضْر الأزاهر حَولَ المرتع الخصبِ
فسدَّد الدهرُ سهماً من كنانتهِ ... على (الكنانةِ) أصمى مهجةَ العربِ !

* * *

أبا عليّ ! . . سقاك الغيثُ عن بلدٍ ... طيّبتَهُ بشذاً من ذلك الأدبِ
بنتُ البقاع شجاها موتُ نابغـة ... رنّت قصائدهُ فى السهل والهضبِ
كسوتَهـا بُردةً كالارز زاهيـة ... لا تستبيح حواشيها يدُ النُّوَبِ
سقْياً لعهدك والأيام باسمـةٌ ... والقوم حولك مثلُ الجحفل اللجبِ
والدهرُ يكتب والاجيال منصتةٌ ... والناسُ فى مرح والنهر[1] فى صخبِ
واها لها ذكريات كيف أنشرها ... وقد طواها قضاءُ الله بالحجُبِ
أتيت عن (جارة الوادى) وبى ظمأٌ ... ولو إلى نهلة من وِردكَ العذبِ
سقيتَها من كؤوس الخلد مترعةً ... هيهات تفرغ فى الوادى على الحقب
أغنيّةٌ رَجَّع الحادى شواردَها ... شوقية الروح والانفاسِ والطرَبِ

* * *

يا شاعرَ الخلدِ ! . . والدنيا تشيّعُهُ ... أنشدْ قصيدتَك الكبرى على الصُّحُبِ
أذكر لنا ما وراءَ القبر من عِبرٍ ... وابعثْ ضياءَ الهدى من ظلمة الترَبِ
أسامعٌ أنت خلف الغيب أنّتنا ... أم أنت فى ركْبِ منْ نودِى ولم يجبِ
أسالمٌ ثمّ من واشٍ ومنتقد ... أعالمٌ ما ستلقى (الضاد) من نَصَبِ
وهل رأيت الالى خلّدت ذكرُهم ... من مالكٍ فاتح أو سيدٍ أربِ
وهل شهدتَ (ندىَّ الشعر) محتشداً ... وهل جلستَ إلى أترابك النُّجُبِ
تَسقى وتُسْقَى على ظلٍّ وحاشيةٍ ... من خمرةِ الشعر لا من خمرة العنبِ
قلْ ما تشاءُ وصفْ واشرح حقائقها ... واكشفْ لنا عن خفايا الشكّ والريب

* * *

حنَّتْ اليكَ عذارى الخلد واستبقتْ ... عرائسُ المجد فى أثوابها القشُبِ
والتاجُ لاح على فوديْك مؤتلقاً ... كالشمس فى موكب الأنوار واللهَبِ
كأنّ (صبرى[2]) وحادى الوجد لجّ بهِ ... فهبٌ يسعى الى لقياك عن كثبِ

(١) البردونى : نهر رحلة المشهور . (٢) شيخ شعراء مصر المرحوم اسماعيل باشا صبرى .

يصيح بالملأ الأعلى : ألا استمعوا
إن الامارة لم تُسْلِسْ أعنّتها

ما قاله (حافظ) فى خالد الخطَب :
فى الشرق الا لذاك الشاعر العربى !

مليم دموسى

النيل الخالد

عجباً ! أتوحشُنى وأنت إزائى
وضياء وجهك مالهُ سَوْدائى ؟!
لكن جرى قَدَرٌ وإنْ أَبَتِ المُنَى
بِنوى أُحِبَّتِنا لغير لقاء
جرحوا صميمَ القلب حين تحمَّلُوا
اللهَ فى جُرحٍ عزيزِ شِفاء
الطيِّبُ المحمودُ من عمرى مضى
والمفتدَى بالروح من خُلصائى
لا بل هما مِنِّى جَنَاحا طائر
رُمِيَا ولم يكُ نافعى إخطائى
الصاحبان الاكرمان تَوَلَّيا
فَعَلامَ بعد الصاحبين بقائى ؟
لم يتركا بَرَدَاهما غيرَ الأسى
لأخيهما ما دامَ فى الاحياء
وَحيالَ الخُلطاء إلا أننى
متغرِّبٌ بالعَهْد فى خُلَطائى
أيرادُ لى من فضل ما مَجَدا به
إرثٌ ؟ اذنْ جَهِلَ الزمانُ وفائى !
إنْ نَحْيَ بالذكرى فلا تبديلَ فى
صِفَةٍ ، ولا تغييرَ فى الأسماء
يا صاحبىَّ غدوتُ منذُ نَأَيتُما
أجِدُ الحياةَ ثقيلةَ الأعباء
لا ليلُ عافيةٍ هَجَعْتُ به ، ولا
يومٌ نشِطْتُ به من الإعياء
انا واحدٌ فى الجازعين عليكما
وكأنما ذاك البلاءُ بلائى
فاذا بدا لكما قصورى فاعذرا
او شَفِّعَا لى مُسْلَفَاتِ ولائى

* * *

مَهْلاً أميرَ الشعر غير مدافعٍ
ومُعِزَّ دولته بغير مِراء
كم أُمَّةٍ كانت على قَدَرِ الهوى
ترجوكَ ما شاءَتْ لطول بَقاء
متمكناً من نفسها إيمانها
أن لم تكن مِمَّنْ حَيُوا لفَناء
فاذا المنايا لم تَزَلْ حَرْبَ المُنَى
وإذا الرزيئة فوق كل عزاء

فى مصرَ بل فى الشرق منها لوعةٌ ... سَدَّت على السُّلوانِ كلَّ فَضاء!
أرَى مُوَيْجاتِ الأثيرِ كأنها ... حَسْرى بما تُزجى من الانباء؟!
بَعَثَ الشَّرارُ بها ثِقالاً لَو بدا ... ما حُمِّلَتْ لبدت نِطافُ دماء!
جَزَعُ الكنانةِ كاد لا يَعدو أسَى ... أمَّ القرى ومناحةَ الفَيحاء
ويحضرموتَ على تنائى دارها ... شكوى كشكوى تونسَ الخضراء
بالامس كان هواكَ يجمع شَمْلَها ... فى فُرْقَةِ النَّزَعاتِ والاهواء
واليومَ فَتَّ رَدَاكَ فى أعضادِها ... ما أجْلَبَ البأساءَ للبأساء!

* * *

أفدِحْ بما يلقاه آلُكَ إنْ يكنْ ... حُزنُ الأباعدِ جَلَّ عن تأساء
حُرموا أباً برّاً نَمَوا وترعرعوا ... من جاهِهِ فى أسمح الافياء
وكفقدهم فَقَدَ الغرانيقُ العُلى ... عَلَمَ الهُدَى للفِتْيةِ النُّجباء
وَكَرُزْئهم رُزِىءَ الرجالُ مُرجَّباً ... عَفَّ اللسانِ مهذَّبَ الايماء
يتناولون من الصحائف وَحْيَهُ ... فتكون كلُّ صحيفةٍ كِلواء!
ما عشتَ فيهم ظِلْتَ بُلْبُلَ أيكهم ... فى الأمْن، والرِّئبالَ فى اللأواء
لك جَوُّكَ الرَّحْبُ الذى تحلو به ... متفرِّداً والنـــاسُ فى أجواء
عذلوك فى ذاك التعزُّلِ ضَلَّةَ ... إن التعزُّلَ شيمةُ النُّزَهاء
ما كان شغلُكَ لو دَرَوا الاّ بهم ... لكن كَرِهتَ مشاغلَ الشُّفَهاء
ولَعلَّ اعطفَهم عليهم مَن دنا ... بالنفع منهم وهو عنهم ناء
أنزلْتَ نفسَك عند نفسِك مُنْزَلاً ... يَأبَى عليها الخَسْفَ كلُّ إباء
فرعَيتَ نِعْمَتك التى أثَّلتَها ... ورعَيتَ فيها جانبَ الفقراء
تَقْنِى حياءَك عالماً عن خُبْرَةٍ ... أنَّ الخصاصةَ آفةُ الأدباء
وترى الزَّكاةَ لذى الثَّراء مَبَرَّةً ... منهُ به ووسيلةً لِزَكاء
كم من يدٍ أسديتَها وكسوتَها ... متأنِّقاً لُطْفَ اليدِ البيضاء

* * *

عصرٌ تقضَّى كنتَ ملءَ عيونه ... فى اربعينَ بما أفَدْتَ مِلاء
يجلو نبوغُك كلَّ يوم آيةً ... عذراءَ من آياتهِ الغرّاء
كالشمس ما آبت أتت بمجدَّدٍ ... متنوِّعٍ من زينةٍ وضياء
هِبَةٌ بها ضَنَّ الزمانُ فلم تتَحْ ... الاّ لافذاذ من النُّبَغاء

يأتون فى الفترات بُوعِدَ بينها ... لِتَهيُّؤ الاسباب فى الأنساء
كالانبياء ومَن تأثَّرَ إثرَهم ... من عِلْيَةِ العلماء والحكماء
رفعتك بالذكرى الى أعلى الذرى ... فى الخُلْد بين اولئكَ العظماء
مَنْ مُسْعِدى فى وَصْفها او مُصعِدِى ... دَرَجاتِ تلك العزة القَعْساء
ومُطَوِّعٌ لى من بيانى ما عصى ... فاقولَ فيك كما تُحِبُّ رِثائى
لى فيك من غُرَرِ المديح شوارِدٌ ... أدَّتْ حقوقَ علاك كلَّ أداء
ووفتْ قوافيها بما أمّلى على ... قَلَمى خُلوصُ تجلّتى وإخائى
ما ذا دهانى اليومَ حتى لا أرى ... إلا مكانَ تفجعى وبكائى !!

* * *

(شوقٌ) لا تبعدْ وإنْ تك نِيَّةٌ ... ستطولُ وَحْشَتُها على الرُّقباء
تالله شمسُك لن تغيبَ ، وإنها ... لَتُنيرُ فى الإصباح والإمساء
هى فى الخواطرِ والسَّرائرِ تنجلى ... ابداً ، وتَغْمُرُهن باللألاء
والذُّخْرُ أغلى الذخرِ ما خلفتَه ... من فاخرِ الآثار للأبناء
هو حاجة الاوطان ما دالت بها ... دُوَلٌ من السَّرّاء والضراء
سَيُعاد ثم يعاد ما طالَ المدى ... ويظَلُّ خَيرَ مآثر الآباء
يكفى بيانَك أن بلغتَ مُوَفَّقاً ... فيه أعزَّ مَبالغ القدماء
بَوَّأتَ مصرَ به مكاناً نافست ... فيه مكانَ دِمشقَ والزَّوراء
ورددتَ موقفَها الاخيرَ مُقدَّماً ... فى المجد بين مَواقف النُّظراء
لك فى قريضك خُطَّةٌ آثرتها ... عَزَّتْ على الفُصحاء والبُلَغاء
من أىِّ بحرٍ دُرُّهُ متصيَّدٌ ... وسَناهُ من تنزيل أىِّ سَماء
ظهرت شمائلُ مصرَ فيه بما بها ... من رِقَّةٍ ونُعومَةٍ ونَقاء
ترخيمُها فى لحنهِ متسامَعٌ ... ونَعيمُها فى وَشْيه مُتراء
شعرٌ مرَى مسرَى النَّسيم بلطفه ... وصفا بروْعته صَفاءَ الماء
تَرِدُ العيونُ عُيونَه مشْتَفَّة ... ويُصيبُ فيه السمعُ رِىَّ ظَماء
ويكادُ يُلْمَسُ فيه مشهودُ الرُّؤَى ... ويُحَسُّ همْسُ الظنِّ فى الحوْباء
فى الجوِّ يؤنس من يحلق طائرٍ ... والدوِّ يؤنس راكبَ الوجناء
عجباً لما صرَّفْتَ فيه فُنُونَهُ ... من فِطْنَةٍ خلاّبةٍ وذكاء

فلكلٍّ لفظ رونقٌ متجدِّدٌ ولكلٍّ قافية جديدُ رُواه
يُجلى الجمالُ به كأبدع ما انجلت صُوَرٌ حسانٌ فى حسان مراه
ولربما راعَ الحقيقة رسمُها فيه فما اعتصمتْ من الخيلاء!

* * *

حيَّاكَ ربك فى الذين سَموا إلى أمَلٍ فأبلَوْا فيه خيرَ بلاء
مِنْ مُلْهَمٍ أدى امانة وَحْيِهِ بعزيمة غلّابة ومضاء
متجشِّمٌ بالصبر دونَ أدائها ماسِيمَ من عَنَتٍ وفرط عَناء
للعبقريةِ قوةٌ عُلْوِيَّةٌ فى تجْوَةٍ من نفسه عصماء
كم أخرجت لأولى البصائر حكمةٌ مما ألمَّ به من الأرزاء
حتى اذا اشتعل المشيبُ برأسِهِ ما زادَ جُذْوَتَها سوى إذكاء
فالداءُ يُنحِلُ جسمَه ونشاطُها يُخفى بروْعته نشاطَ الدّاء
جسمٌ يقوِّضُهُ السَّقامُ ، وَهَمُّها متعلق بالخلقِ والانشاء
عَجباً لعامَيْه اللذين قضاهما فى الكَدِّ قبل الضَّجعة النَّكراء
عاما نِزاعٍ لم تُهادِنْ فيهما نُذُرُ الرَّدَى وشواغلُ البُرَحاء
حَفلا بما لم يتَّسِعْ عُمْرٌ له من باهر الإبداع والإبداء
فَتْحٌ يلى فتحاً ، وصرحٌ باذخٌ فى إثره صرحٌ وَطيدُ بناء
هذا إلى فِطَنٍ يقصر دونها مجهودُ طائفة من الفُطناء
من تحفةٍ منظومةٍ لفكاهة او طُرْفَةٍ منظومة لغناء
او سِيْرَةٍ سِيقتْ مساقَ رواية لمواقف التمثيل والإلقاء
تجرى وقائعها فتجلو للنُّهى منها مَغازىَ كُنَّ طَىَّ خفاء
فاذا الحياةُ عَهيدُها وعَتيدُها مَزْجٌ كمزجِ الماء والصَّهباء
تَطْفُو حقائقُها على اوهامها وتَسُوغُ خالصةً من الأقذاء

* * *

يا مَن صَحِبْتُ العُمْرَ أشهدُ ما نحا فى الشعر من متباين الأنحاء
إنى لَيحْضُرُنى بصادقِ حالِهِ ماضيك فيه كأنه تلقائى
مِن بدْئِهِ وحِجاكَ يفتحُ فَتحَهُ لِلحِقْبةِ الأَدَبيَّةِ الزَّهْراء
حَتَّى الختامِ ومِن مفاخر مجدِهِ ما لم يُتَحْ لِسِوَاكَ فى الشعراء

فأرى مثالاً رائعاً فى صورةٍ ... للنّيلِ تملأ منه عينَ الرّائى
النيلُ يجرى فى عقيقٍ دافقٍ ... من حيثُ ينبعُ فى الرُّبى الشمّاء
يَسقى سهولَ الرّيفِ بعد حُزونهِ ... ويُديلُ عمراناً من الإقواء
ما يعترضهُ من الحواجز يعدُهُ ... ويعدْ الى الإحياء والإرواء
حتى إذا رَدّ الفَيافىَ جَنّةً ... فيما عَلا ودَنا من الأرجاء
أوفى على السدّ الاخير ودُونَهُ ... قُربُ المصيرِ الى محيطِ عَفاء
فطفى وشارَفَ من خلافٍ زاخراً ... كالبحر ذى الإزباد والإرغاء
ثمّ ارتمى بفيوضهِ من حالقٍ ... فى المَهْبِطِ الصّادى من الجرعاء
فتحدّرتْ وكأنّ مُنهمراتِها ... خُصَلٌ من الأنوارِ والأندادء
مسموعةُ الإيقاعِ فى أقصى مدًى ... جَذْلى بما تُهدِى من الآلاء
إنْ أخطأتْ قَطْراً مواقعُ غيثِها ... أحظَتهُ باللّمحاتِ والأصداء!

* * *

لله دَرُّ قريحةٍ كانت لها ... هذى النّهايةُ من سَنًى وسناء
رَفَعَتْكَ من علياءَ فانيةٍ الى ... ما ليسَ بالفانى من العلياء!

خليل مطران

الشعر

بعد كبيره وأميره

الشعر بعد مُصابهِ بكبيرهِ ... فى مِصرَ جلّ مصابهُ بأميرهِ
بيناهُ يبكى حافظاً بشهيقهِ ... إذْ قام يبكى أحمداً بزفيرهِ
لم يَقضِ بعض حِدادهِ لنصيرهِ ... حتى أحدّ أسىً لفقد مُجيرهِ
ما إنْ خَبَتْ فى الأفقِ شُعْلةُ نارهِ ... حتى انطوتْ فى الجوّ لمعةُ نورهِ
بالأمس ظلّ مُمرَزّأً بمُبينهِ ... واليومَ بات مفجّعاً بمُنيرهِ
أخذت فرزدقةُ المنون وضاعفتْ ... جُلّى مصيبتهِ بأخْذِ جريرهِ
رُزآن ملتهبان قد نَضَحَتْهما ... عَينُ العُلَى من دمعها بغزيرهِ

فالشعر بعدهما استطالَ بكاؤهُ وتموّجتْ بالحزن كلُّ بحورهِ
وهزارهُ ترك الصداحَ وليتُه أحنتْ أعاديه سماعَ زئيرهِ

* * *

يا نيّراً غُمَّ القريض بموته فبكته عينُ وزينهِ وكسيرهِ
وخلتْ سماءُ الشعر بعد افولهِ من مشرقات شموسهِ وبدورهِ
ومُؤمَّراً لم تنتقضْ بوفاته في الشعر بيعتُهُ على تأميرهِ
لك في الخلود مكانةٌ ما نالها فرعون في دهماسهِ وحفيرهِ
إنّ الدفين مضمّخاً بحنوطه دون الدفين محنّطاً بشعورهِ
إنّ المتوّج فوق عرش ذكائه يعلو المتوّجَ فوق عرش سريرهِ
ما ماتَ من تركت لنا أقلامهُ صُوَراً خوالدَ من بنات ضميرهِ
صوراً تمثل ذاتَهُ وصفاتَهُ حتى يَقُمْنَ لنا مقامَ نشورهِ
فكأنه وهو الدفين بقبرهِ حيٌّ يعيش بحزنهِ وسرورهِ
وكأنه في القومِ ساعةَ حَفلهم متكلمٌ بنظيمهِ ونثيرهِ !

* * *

لابي عليٍّ من قريحة شعرهِ وحيٌ أتى من جبرئيل شعورهِ
كم قد رمى الغيبَ الخفيَّ فؤادُهُ بذكائه فأصاب كشف ستورهِ
وتصوّر المعنى الدقيق فردّه كالصبح منفلقاً أوانَ ظهورهِ
يأتيك بالمعنى الجميل قد اكتسى من وشي سندس لفظه وحريرهِ
فالشعر قد دُكت جبالُ فنونه إذ موتُ شوقي كان نفخةَ صُورهِ
يا راحلا تركَ القوافي بعده محتاجة المحيا الى تفكيرهِ
لهفي على ذيّاك القلم الذي يتطرّب الأرواحَ لحنُ صريرهِ
الشعر كنت أميرَهُ وسميرَهُ فَنِ المسامرُ بعد فَقْد سميرهِ
حرّرته من رِقِّ كلِّ تصنُّعٍ فبدتْ فنونُ الحسن في تحريرهِ
سخّرتَ من أوتاره ما لم يكنْ ليطيعَ غيرَكَ قطّ في تسخيرهِ
ولكم شدَوْتَ بنغمة من نمّه ولكم صدَحْتَ بنغمة من زيرهِ
تتمايل الأبدانُ في إنشاده طَرَباً وليس يُملّ من تكريرهِ

* * *

يا أهلَ مصر عزاءكم ، فصابكم أمرٌ قضاهُ الله فى تقديرهِ
الشعر قد ثُلَّتْ بمصر عروشهُ بوفاة سيِّدهِ وموت أميرهِ
عَلَمَان من أعلامه كانا بهِ يتنازعان السَّبْقَ فى تحبيرهِ
لكليهما الهرَمان قد خشعا أسًى والنيل مدَّ أنينه بخريرهِ !

معروف الرصافى

أروع مرثية لشوقى

رثاؤه لوالدته

لانرى أنسبَ فى ختام شعر المراثى من نشر المرثية الفريدة التى فاضت بها شاعرية شوقى فى ندب والدته التى كان يحبها الى درجة العبادة ، وكأنه فى كثير من أبياتها يرثى نفسه ويبكى مآلَ الانسانية . وقد نظم الفقيدُ الكريمُ هذه المرثية الرائعة فى ظروفٍ مشجيةٍ حقّاً : وذلك على أثر اعلان الهدنة بينما كان يعلل النفس بالعودة الى الوطن العزيز ولقاء آله وصحبه وفى مقدمتهم والدته الحبيبة . فما كاد يداعب هذا الأمل حتى وافاه البرق بنعى أحبّ الناس اليه ، فأثر هذا المصاب الجلل فى نفسه تأثيراً بليغاً ، وبعد ساعة كتب هذه المرثية الرائعة التى تحاشى مراجعتها ونشرها من فرط تأثره ، فبقيت مستورة بين أوراقه الخاصة .

* * *

الى اللهِ أشكو مِنْ عوادى النوى سَهْمَا أصابَ سويداءَ الفؤاد وما أصْمَى
من الهاتكاتِ القلبَ أولَ وهلةٍ وما داخلتْ لحماً ولا لامستْ عظما
توارد والناعى فأوجستُ رنةً كلاماً على سمعى وفى كبدى كلما
فما هتفا حتى نزا الجنبُ وانزوى فيا ويحَ جنبى كم يَسيلُ وكم يَدمَى
طوى الشرقَ نحو الغرب والماءَ للثرى الىَّ ولم يركب بساطاً ولا يَمَّا